الشعر والتشيع فى مصر بعد الفاطميين

يذهب صاحب الطالع السعيد إلى أن بلادًا بأكملها فى مصر كانت تدين بالتشيع حتى القرن الثامن من قرون الهجرة، ففى حديثه عن إدفو قال: كان التشيع بها فاشيا، وأهلها طائفتان الإسماعيلية والإمامية، ثم ضعفت حتى لا يكاد يتميز به إلا أشخاص قليلة[1].

ويقول عن أسفون: بلدة معروفة بالتشيع البشع لكنه خفّ بها وقلّ[2]...

وعن إسنا قال: وكان التشيع بها فاشيا والرفض بها ماشيا فجف حتى خف[3]...

وفى حديثه عن بهاء الدين القفطى هبة الله بن عبد الله بن سيد الكل حاكم إسنا والمدرس بمدرستها المتوفى سنة ٦٩٧ هـ قال: «إنه فتح إسنا فإنه كان بها التشيع، فمازال يجتهد فى إخماده وإقامة الأدلة على بطلانه وصنّف فى ذلك كتابا سماه... «النصائح المفترضة فى فضائح الرفضة» وهمُّوا بقتله فحماه الله منهم[4]...

وفى حديثه عن ابن دقيق السعيد المتوفى سنة ٦٦٧ هـ قال: إننى إلى الصعيد فى طالع لأهله سعيد، فتمت عليهم بركاته وعمتهم علومه ودعواته وكان مذهب الشيعة فاشيا فى ذلك الإقليم، فأجرى مذهب السنة على أسلوب حكيم وزال الرفض وانجاب وثبت الحق حتى لم يبق فيه شك ولا ارتياب..[5]»

وحفظ أسماء عدد من العلماء والأدباء من رجال القرنين السابع والثامن من قرون الهجرة كانوا يدينون بالتشيع نذكر منهم عبد القادر ابن مهذب الإدفوى - ابن عم صاحب الطالع السعيد - وقيل إنه رحل إلى قوص للاشتغال بالفقه فحفظ أكثر التنبيه، وكان إسماعيلى المذهب، مشتغلا بكتاب الدعائم تصنيف القاضى النعمان بن محمد متفقها فيه...

وكان فيلسوفا يقرأ الفلسفة، ويحفظ من كتاب زجر النفس، وكتاب أثولوجيا وكتاب التفاحة المنسوب إلى أرسطوا كثيرا، وتوفى سنة ٧٢٥ هـ[6].

---

(١) الإدفوى: الطالع السعيد ص ١٦.

(٢) نفسه ص ١٧.

(٣) نفسه ص ١٧.

(٤) نفسه ص ٣٩٧.

(٥) نفسه ص ٢٢٩.

(٦) نفسه ص ١٧٦.

وكان عبد الملك بن الأعز بن عمران الذى أخذ النحو والأدب عن الشمس الرومى متهما بالتشيع مشهورا به وتوفى سنة ٧٠٧ هـ[١].. وأن الشاعر المحدث محمد بن محمد بن عيسى الشيبانى النصيبينى كان متشيعا[٢].. أما القاضى جلال الدين الحسن بن منصور المعروف بابن شواق المتوفى سنة ٧٠٦ هـ فقد كان يتشيع ويدرس مذهب الشيعة ثم قبض عليه ورحل إلى القاهرة بعد أن صودرت أمواله[٣].. ويذكر ابن حجر أن على بن المظفر بن إبراهيم الوادعى الكندى المتوفى سنة ٧١٦ هـ وكان كاتبا فى ديوان الإنشاء كان يشيع[٤].

ويطول بنا البحث لو حصرنا فى هذا البحث القصير من كان يعرف بالتشيع من علماء وأدباء مصر فى عصر الأيوبيين.. وهذا يدل على أن العقيدة الشيعية لم تقتلع من نفوس المصريين بل ظلت عقيدة بعض المصريين بالرغم مما أصاب الشيعة فى مصر فى ذلك العصر من ألوان الاضطهاد وبالرغم مما قام به علماء جمهور أهل السنة والجماعة من جهود متواصلة فى تعليم المصريين علومهم وآراءهم بفضل تلك المدارس المذهبية السُّنية التى انتشرت فى مصر انتشارا عظيما، فكانت هذه المدارس هى السبب الأول فى تحول الشيعة فى مصر إلى رأى الجماعة والسنة...

شعر المتشيعين

كان بين بقايا الشيعة فى مصر عدد كبير من الشعراء حفظت بعض قصائدهم التى يظهر فيها أثر العقيدة الشيعية التى دانوا بها.. نذكر من هؤلاء الشعراء أبا العباس شهاب الدين بن عبد الملك العزازى [٦٣٤: ٧١٠ هـ].. التاجر بقيسارية جهاركسْ بالقاهرة[٥].. كان أديبا بارعا ولا سيما فى نظم الموشحات وكان يتشيع ويظهر تشيعه فى شعره ومن ذلك قوله:

إذا أنا لم أبت دامى الأماقى ... عليه ودانىَ الكمد القصىِّ
وأمسى فيه ذا وسن ضنين ... وأصبح فيه ذا شجن شجىِّ
فلا صارت بقافية ركابى ... ولا عادت بناجحة مطىِّ

(١) نفس المصدر ص ١٨١.
(٢) نفس المصدر ص ٣٥٤.
(٣) الإدفوى: الطالع السعيد ص ١٧٦.
(٤) ابن حجر: الدرر الكامنة ج٣ ص ١٣٠
(٥) أبو المحاسن: المنهل الصافى ج ١ ص ٣٤٠ طبعة دار الكتب المصرية..

وإلا لا اعتقدت ولا علىٌّ ... ولا اضمرت حب بنى علىٍّ
أناس أدركوا أمد المعالى ... ونالوا رتبة الشرف العلىٍّ
هم سحب الندى يوم العطايا ... ويوم الفخر أقمار الندىٍّ
إذا كررت ذكرهم كأنى ... فتت لطايم المسك الذكىٍّ
أبوهم ذو الجلالة من قريش ... وذو انسب الصحيح من النبىٍّ
ناصر دينه سرا وجهرا ... خلافا للفريق الجاهلىٍّ
وقاهر كل كفّار عنيد ... وفانى كل جبار عتىٍّ
وضارب يوم صفين وبدر ... أمامى هامة البطل الكمىْ
وكاشف كل مشكلة ولبس ... وغامضه بلا حصر وعِىٍّ
أللناعى عليهم يوم فخر ... كأصلهم وفرعهم الذكىٍّ
أللسّاعى بهم نحو المنايا ... كقدرهم ومجدهم العلىٍّ
أتقدر ظلمة الليل الدياجى ... تغطى آية الصبح الجلىٍّ
ترى بعد الحسين يسوغ ماءًا ... ويحلو مورد العيش الهنىٍّ
وأية عيشة تحلو وتصفو ... وقد جار العدو على الولىٍّ
لقد ظلموا وما حازوا حقوقا ... لفاطمة البتول ولا الوصىٍّ
بكم يا آل يس وطه ... تحط خطية الجانى المسىٍّ
ويحظى بالشفاعة كل عاصٍ ... ويسعد كل محترم شقىٍّ
سلام الله والرضوان منه ... عليكم فى الغدو وفى العشىٍّ

فهذه المعانى فى هذه المقطوعة لا يمكن أن تصدر إلا من شاعر يعتنق التشيع له دينا فولايته لآل البيت وإسباغ الفضائل عليهم وشفاعته بهم وحزنه على الحسين بن على وعلى من قُتل من العلويين. كل هذه معان شيعية خالصة لا ينشدها إلا شاعى شيعى.. ولكن العزازى فى هذه القصيدة وفى غيرها من قصائده الشيعية فى ديوانه لم يلم بالمعانى الفلسفية الشيعية التى كنا نراها عند شعراء الفاطميين بل اكتفى بإيراد المعانى الشيعية العامة التى يقول بها كل فرق الشيعية غير المتطرفة على اختلاف مذاهبهم ولذلك صار من الصعب علينا أن نتعرف الفرقة الشيعية التى كان ينتمى إليها العزازى.. وكذلك نقول عن الشاعر ابن شوّاق الإسنائى جلال الدين الحسن بن منصور الذى وصفه الإدفوى بقوله:

«رأيته وصحبْتهْ مدة وكان رئيس الذات والصفات حسن الأخلاق كريما فى نهاية الكرم حليما له فى الحلم عِلْم..» وقد ذكرنا كيف صودرت أمواله لتشيعه. وأنه رحل إلى القاهرة فاجتمع بالصاحب تاج الدين محمد بن الصاحب فخر الدين. فأعجب هذا به وعرض عليه العمل فى ديوان الإنشاء[1] فرفض..

كان هذا الرجل يتشيع وكان تشيعه على النحو الذى كان عليه شيعة مصر قبل عصر الفاطميين. أى حب الصحابة وتعظيمهم والاعتراف بفضلهم.. إلا أنه كان يقدم على بن أبى طالب عليهم[2] ومع ذلك كان هذا المتشيع شاعرا. وقد وصلتنا قصيدة له يمدح بها أهل البيت ويصفهم بصفات هى أقرب ما تكون إلى الصفات التى يذكرها علماء الشيعة الإسماعيلية عن الأئمة فهو يقول:

كيف لا يحلو غرامى وافتضاحى ... وأنا بين عبوق واصطباح
مع رشيق القد معسول اللما ... أسمر فاق على سمر الرماح
جوهرى الثغر ينحو عجبا ... رفع المرضى لتعليل الصحاح
نصب الهجر على تمييزه ... وابتدأ بالصد جدّا فى مزاح
فلهذا صار أمرى خبرا ... شاع فى الآفاق بالقول الصراح
يا أهيل الحى من نجد عسى ... تجبروا قلب أسير من جراح
لِم خفضتم حال صب جازم ... ماله نحو حماكم من براح
ليس يصغى قول واش سمعه ... فعلى ماذا سمعتم قول لاح
ومحوتم اسمه من وصلكم ... وهو فى رسم هواكم غير ماح
لئن أفرطتموا فى هجره ... ورأيتم بعده عين الصلاح
فهو راج لأولى آل العبا ... معدن الإحسان طرًا وللسماح
لدوا أمرا عظيما شانه ... فهو فى أعناقهم مثل الوشاح
منناء الله فى السر الذى ... عجزت عن حمله أهل الصلاح
هم مصابيح الدجا عند السرى ... وهم أسد الشرى عند الكفاح
تشرق الأنوار فى باحاتهم ... ضوءها يربو على ضوء الصباح
اهل بيت الله إذ طهره ... فجميع الرجس عنهم فى انتزاح

(١) ديوان العزازى: نسخة خطيه بدار الكتب المصرية قم ٤٧٩ أدب...
(٢) الطالع السعيد ص ١٠٨ وما بعدها.

آل طـه لـو شـرحـنـا فـضـلـهـم ... رجـعـت مـنـا صـدور فـى انـشـراح
أنـتـم أعـلـى وأغـلـى قـيـمـة ... مـن قـريـضـى وثـنـائـى وامـتـداح
جـدكـم أشـرف مـن داس الحصـا ... فـى مـقـام وغـدو ورواح
وأبـوكـم بـعـده خـيـر الـورى ... فـارس الـفـرسـان فى يـوم الـكـفاح
وارث الـهـادى الـنـبـى الـمـصـطـفـى ... مـا عـلـى مـن قـال حـقـا مـن جُـنـاح
لـو يـقـاس الـنـاس جـمـعـا بـكـم ... لـرجـحـتـم جـمـعـهـم كـل رجـاح
يـا بـنـى الـزهـراء يـرجـو حـسـن ... بـكـم الـخـلـد مـع الـحـور الـصـبـاح
قـد أتـاكـم بـمـديـح نـظـمـه ... كـجـمـان الـدر فـى جـيـد الـرداح
فـاسـمـعـوا يـا خـيـر آلٍ ذكـركـم ... يـنـعـش الأرواح مـع مـر الـريـاح
وعـلـيـكـم صـلـوات الله مـا ... غـشـيـت شـمـس الـضـحى كل الضواحى
وسـرى ركـب وغـنـى طـائـر ... ألـف الـنـواح بـتـكـرار الـنـواح[1]

فالشاعر فى هذه القصيدة ألمّ ببعض عقائد الشيعة فالأئمة قد قلدوا أمرا عظيما شأنه وهى مرتبة الإمامة وأن الأئمة أمناء الله فى السِّر حيث التعاليم الباطنية التى اؤتمنوا عليها والتى عجز عنها غيرهم وضمّن فى شعره الآية القرآنية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾[2]... وهى الآية التى ذهب الشيعة على أنها أنزلت فى أهل البيت من نسل فاطمة بنت الرسول، ثم ذكر أن عليا وصى النبى ووريثه وهى العقيدة التى يتمايز بها الشيعة، بل هى أساس التشيع فهذه كلها معتقدات شيعية بها بعض التأثر بالمعتقدات الإسماعيلية مما يدل على أن الشاعر قرأ كثيرا عن الشيعة وعقائدهم، ودان بهذه العقائد وتوفى هذا الشاعر سنة ٧٠٦ هـ.

والشاعر الفقية الشافعى محمد بن على بن منجى المتوفى سنة ٦٧٣ هـ لم يُعرف عنه أنه تشيع، بل اتجه فى أواخر أيامه إلى التصوف وبنى بإدفو رباطا ووقف عليه وقفا[3].. كان متأثرا بآراء الشيعة، ولا سيما فى عقيدتهم أن بولاية أهل البيت ينال العفو فى الآخرة ففى قصيدته التى أولها:

حـادياها خـلـيـاهـا وسـراهـا ... لـلـحـمـى إن شـئـتـمـا أن تـسـعـداهـا

(١) الطالع السعيد: ص ١١٠ - ١١١.
(٢) سورة الأحزاب: آية ٣٣.
(٣) الطالع السعيد: ص ٣١٠.

ختمها بقوله:

ولئن جرتم عليه فى الهوى ... وعدلتم نحو عذال عداها
فهو يرجو العفو يوم العرض عن ... ما جناه بولاة آل طه[1]

ولم تصلنا من أشعار هذا الفقيه الصوفى شيئا فى التشيع سوى هذا البيت الأخير، وإنما أوردناه لندلل على أن أثر الشيعة كان قويا فى نفوس بعض المصريين، وقد ذكرنا أنه فى سنة ٦٩٧ هـ ظهرت حركة داوود بن سليمان «ويقال بن شعبان» بن العاضد التى دعا فيها لنفسه وأن الناس اجتمعوا حوله ومدحه الشعراء بمقطوعات تظهر فيها أثر عقائد الفاطميين.. من ذلك قول الشاعر ابراهيم بن محمد بن على بن نوفل الإدفوى المتوفى سنة ٧٣٥ هـ فى مدح داوود هذا:

ظهر النور عند رفع الحجاب ... فاستنار الوجود من كل باب
وأتانا البشير يخبر عنهم ... ناطقا عنهم بفصل الخطاب[2]

فالشاعر فى هذين البيتين مدح داود بهذه الصفات التى أسبغها شعراء العصر الفاطمى على الأئمة متخذا المصطلحات الفاطمية الخالصة.. فظهور النور عند رفع الحجاب هو ظهور الإمام بعد استتاره.. وفى البيت الثانى يشير إلى أن داعية الإمام الذى عبر عنه بالبشير جاءهم بفصل الخطاب، وقد رأينا أن وظيفة الحجة فى الدعوة الإسماعيلية هى فصل الخطاب[3]. فالشاعر كان يتحدث إذن كما كان يتحدث شعراء الفاطميين بالرغم من مرور قرن ونصف تقريبا على زوال الدولة الفاطمية من مصر وعندما انتشرت دعوة داود هذا فى بلدة أسفون أنشد الشاعر الماجن الهجّاء قطنبة الأسفونى الحسين بن محمد بن هبة الله مقطوعة شعبية فى هجاء هذه الدعوة وهجاء دعاتها فقال:

حديث جرى يا مالك الرِّق واشتهر ... بأسفون مأوى كل من ضل أو كفر
لهم منهم داع كتيس معمم ... وحسبك من تيس تولى على بقر
ومن نحسهم لا أكثر الله منهم ... يسبوا أبا بكر ولم يشتهوا عمر

(١) نفس المصدر: ص ٣١٣.

(٢) نفس المصدر ص ٣١.

(٣) راجع ما كتبناه عن ذلك فى كتاب أدب مصر الفاطمية: ص ٢١ وكتاب راحة العقل للكرمانى: المشرع السادس من السور الرابع نشر الدكتور محمد كامل حسين والدكتور محمد مصطفى حلمى ص ١٣٦ وما بعدها.

فخذ مالهم لا تختشى من مآلهم فإن مآل الكافرين إلى سقر[1]

فمن هذه المقطوعة الشعبية التى أنشدها قطنبة نستطيع أن نعرف أن الدعوة انتشرت بقوة فى بلد أسفون وكان لها دعاة يأخذون العهود والمواثيق وأنهم كانوا يسبون الصحابة على نحو ما كان يفعل الفاطميون ويخيل إلى أن داوود بن سليمان هذا ما هو إلا دعى، وأنه أحد دعاة الإسماعيلية النزارية (الإسماعيلية الشرقية) فإن من عقائد هذه الدعوة أن يتحمل الإمام فرائض الدين عن المستجيبين وبذلك دعا داوود هذا[2] ولذلك لم تجد الدعوة قبولا عند أكثر المسلمين. وهجاه الشاعر علاء الدين الأسفونى على بن أحمد بن الحسين المتوفى سنة ٧٣١ هـ فقال:

ارجع ستلقى بعدها أهوالا لا عشت تبلغ عندنا آمالا
يا من تجمع فيه كل نقيصة فلأضربن بسيرك الأمثالا
وزعمت أنك للتكلف حامل وكذا الحمار يحمل الأثقالا[3]

فلا غرابة إذن أن نرى هذه الدعوة التى هى أقرب إلى دعوة القرامطة القديمة قد فشلت فى مصر سريعا وأن تنفر من داوود ومن الذين استجابوا له قلوب سواد المصريين، ولذلك لم نعد نسمع عن محاولات أخرى فى مصر لإعادة الدعوة الفاطمية بعد محاولة داوود هذا. ومن الطرائف التى حدثت فى النزاع بين أهل السنة والشيعة فى هذا العصر ما سجله الشعر فيما كان يحدث فى عاشوراء، فى هذا اليوم من كل عام كان الشيعة يقيمون مآتم الحسين ابن على جرْيا على السُّنة التى كان يتبعها الشيعة فى جميع البقاع الإسلامية وتقليدا لما كان متبعا فى مصر الفاطمية.. وكان الشعراء ينشدون أشعارهم فى هذه المناسبة مثل ما أنشده العزازى فى قصيدته التى ذكرناها من قبل، ومثل قول الشاعر شهاب الدين أبى العباس أحمد بن صالح وقد وقع مطر غزير فى ذلك اليوم:

يوم عاشوراء جادت بالحيا سحب تهطل بالدمع الهمول
عجبا حتى السموات بكت رزء مولاى الحسين بن البتول[4]

---

(١) الطالع السعيد ص ١١٧.
(٢) نفس المصدر ص ١٩٧.
(٣) نفسه ص ١٩٧.
(٤) الصفدى: الوافى بالوفيات الجزء الثانى من المجلد الثالث لوح: ٣٥٩ نسخة فوتوغرافية بدار الكتب المصرية.

ولكن أهل السنة أرادوا أن يكيدوا للشيعة فكانوا يخرجون فى هذا اليوم وقد كُحِّلت أعينهم وخُضبت أيديهم وفى ذلك يقول الشاعر المصرى أبو الحسين الجزار:

وبعود عاشور يذكرنى ... رزء الحسين فليت لم يعد
يا ليت عينا فيه قد كحلت ... لشماتة لم تخل من رمد
ويدا به لمسرة خضبت ... مقطوعة من زندها بيدى
أما وقد قتل الحسين به ... فأبو الحسين أحق بالكمد[1]

وأبو الحسين الجزار نفسه هو الذى داعب الشريف شهاب الدين ناظر الأهراء فكتب إلى الشريف ليلة عاشوراء عندما أخَّر عنه ما كان من جارية:

قل لشهاب الدين ذى الفضل الندى ... والسيد بن السيد بن السيد
أقسم بالفرد العلى الصمد ... إن لم يبادر لِنجَازِ موعدى
لأحضرن للهناء فى غد ... مكحل العينين مخضوب اليد[2]

فالشاعر بمداعبته هذه أعطانا صورة لما كان يجرى فى ذلك العصر بين المتعصبين من أصحاب المذهبين.. المذهب السنى الذين كانوا يخرجون ليلة عاشوراء للهناء، والمذهب الشيعى الذين كانوا يخرجون للعزاء، ويخيل إلىَّ أن عادة المصريين الآن ولا سيما فى الأرياف بصنع أطباق الحلوى المعروفة باسم عاشوراء هى أثر من آثار هذا النزاع بين المذهبين فى عصر الأيوبيين والمماليك.

أثر العقائد الفاطمية فى شعر أهل السنة

وإذا تركنا هؤلاء الشيعة الذين أظهروا تشيعهم فى أشعارهم، وصوروا لنا لونا من ألوان الفن المتأثر بهذا المذهب الدينى، فإننا نواجه ناحية هامة عند شعراء هذا العصر الذى نتحدث عنه، تلك الناحية هى تأثر الشعراء بالآراء والصور التى تركها شعراء المدح فى عصر الفاطميين فنحن نعلم أن الفاطميين جعلوا للأئمة صفات خاصة أخذت من صميم عقيدتهم ومذهبهم[3].

واستخدم جميع الشعراء الذين اتصلوا بالأئمة سبيل المدح بذكر هذه الصفات[4]، واستمر هذا الضرب من المديح طوال عصر الفاطميين فى مصر وبالرغم من أن الدولة الفاطمية دالت

(١) ابن شاكر: فوات الوفيات ج ١ ص ١٤٨.
(٢) المقريزى الخطط ج ٢ ص ٣١٥.
(٣) راجع ما كتبناه عن ذلك فى مقدمة كتاب المؤيد فى الدين داعى الدعاة «نشر دار الكاتب المصرى».
(٤) فى أدب مصر الفاطمية ص ١٤١ وما بعدها.

على يد الأيوبيين وأن الدعوة الفاطمية اضمحل أمرها فلم يعد الدعاة يقومون بنشاطهم فإن الشعراء استمروا فى مديحهم فى نفس التيار الذى رأيناه عند الفاطميين، بل خلعوا على سلاطين الأيوبيين نفس الصفات التى خلعها شعراء الفاطميين على أئمتهم بل غلا بعضهم فى المدح فنسب إلى السلاطين والخلفاء العباسيين مالم ينسبه شعراء الفاطميين إلى أئمتهم، فابن سناء الملك المتوفى سنة ٦٠٨ هـ مدح صلاح الدين بقوله:

أعدت إلى مصر سياسة يوسف ... وجدت فيها من سميك موسما
وأحييت فيها الدين بعد مماته ... فأنت ابن يعقوب وأنت ابن مريما
بقيت إلى أن تملك الأرض كلها ... ودمت إلى أن يرجع الكافر مسلما[1]

فإذا كنا نقبل أن تكون المقارنة بين صلاح الدين ونبى الله يوسف لتشابههما فى الاسم فإننا لا نقبل أن يكون صلاح الدين هو «ابن يعقوب» أو هو عيسى بن مريم لأنه أحيا الدين بعد مماته، إلا إذا كنا نتمذهب بالعقيدة الفاطمية التى تؤول الآيات القرآنية التى وردت فى المسيح بأن إحياء الموتى هو نشر الدين وإحياء النفوس حياة صحيحة بالعبادة العلمية[2] أو نقول كما قال الفاطميون بالدور وانتقال النبوة والأئمة بالتسلسل والتعاقب، وأن الخلف يرث دور السلف تماما ويحدث فى أيامه ما حدث فى أيام من سبقه فإذا بمحمد هو عيسى وهو موسى وهو نوح.... إلخ[3].

فقول ابن سناء الملك «فأنت ابن يعقوب وأنت ابن مريما» هو أثر من آثار العقائد الفاطمية.

وفى قصيدة أخرى مدح هذا الشاعر صلاح الدين بقوله:

نُصرت بأفلاك السماء فشهبها ... خميس به يردى الخميس العرمرما
رقيت إلى أن لم تجد لك مرتقى ... وأقدمت حتى لم تجد متقدما
فما يبرم المقدار ما كنت ناقضا ... ولا ينقض المقدار ما كنت مبرما[4]

ففى البيت الأول يتحدث عن أفلاك السماء التى نصرت السلطان وأفلاك السماء فى التأويل الفاطمى يعنى الملائكة وهى العقول فى الاصطلاحات الفلسفية والإسماعيلية أيضا[5]

---

(١) ديوان ابن سناء الملك (مخطوط رقم ٢٣٣٣٣١ بمكتبة جامعة القاهرة).
(٢) المجالس المؤيدية ج ١ ص ١٤٧ (نسخة خطية بمكتبتى).
(٣) راجع ديوان المؤيد فى الدين ص ١٣٥ وما بعدها.
(٤) ديوان ابن سناء الملك.
(٥) المجالس المؤيدية ج ١ ص ٢١٧.

وفـى البيت الثانى دفع الشـاعر شـدة المبالغة والغلو فى المديـح إلى أن جعل صلاح الدين فـى مرتبة ليس فوقهـا مرتبة، وهذا المعنى كثير جدا فى شـعر العصر الفاطمى لأن الإمام مَثَّل للمبدع الول الذى ليست فوقه مرتبة[1] والبيت الثالث هو نفس معنى بيت ابن هانىء الأندلسى فى مدح المعز لدين الله الفاطمى:

مـا شـئـت لا مـا شـاءت الأقـدار فـاحـكـم فـأنـت الـواحـد الـقـهـار

ثم اقرأ لابن سناء الملك أيضا قوله فى مدح على الشهيد نور الدين زنكى:

مـولـى الأنـام (عـلـى) هـكـذا نـقـلـت لـنـا الـرواة حـديـثـا غـيـر مـخـتـلـق[2]

فالشـاعر هنـا نقل الحديث النبـوى «من كنت مولاه فعلى مـولاه» الذى قيل فى على ابن أبى طالب إلى على الشهيد نور الدين زنكى، وتبع سنة شعراء الفاطميين الذين مدحوا الأئمة أنهم موالى الأنام ومرة أخرى يمدح صلاح الدين بقوله:

قـد مـلـكـت الـبـلاد شـرقـا وغـربـا وحـويـت الآفـاق سـهـلا وحـزنـا
واغـتـدى الـوصـف عـن عـلاك حـسـيرا أى لـفـظ يـقـال أو أى مـعـنـى
ورأيـنـا ربـنـا قـال: أطـيـعـوه سـمـعـنـا لـربـنـا وأطـعـنـا[3]

والشـعراء الفاطميون كانوا يضمنون فى أشـعارهم الآيـة: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[4]، وقال الدعاة إن هذه الآية أنزلت فى على بن أبى طالب فأخذ ابن سـناء الملك هذا المعنى وأودعه شـعره ولم يجعلها فـى الأئمة من أهل بيت على بن أبى طالب إنما جعلها فى صلاح الدين ولم يكتف ابن سـناء الملـك بأن يتأثر بهذه العقائد الفاطمية ويتبع تيار الشـعر الفاطمى فى مدحه لصلاح الدين الأيوبى أو نور الدين زنكى، بل نراه فـى مدائحه للقاضـى الفاضل يأتى بالمعانى التى كانت تقـال للأئمة الفاطميين ولها من عقائدهم سـند، أما أن تقال للقاضى الفاضل فهذا هو الأثر القوى على شـعر ابن سـناء الملك، فنحن نعلم أن الفاطميين وصفوا الأئمة بأنهم رحمة للعالمين[5] فجاء ابن سناء الملك وقال للقاضى الفاضل:

(١) نفس المرجع ج ١ ص ١٠٩.
(٢) ديوان ابن سناء الملك.
(٣) ديوان ابن سناء الملك.
(٤) سورة النساء: الآية ٥٩.
(٥) المجالس المؤيدية ج ١ ص ٢٠٢.

عبد الرحيم على البرية رحمةً أمِنْت بصحبتها حلول عقابها[1]

وقال الفاطميون إن قصر الإمام هو فى العبادة العلمية «التأويل الباطن» الكعبة وأن الحج الباطن هو زيارة الإمام[2]. فقال ابن سناء الملك للقاضى الفاضل:

يا كعبة طاف الملوك بها بل قبلة حج الأنام لها[3]

وهكذا نستطيع بسهولة أن نتبع أثر العقائد الفاطمية فى شعر ابن سناء الملك وهو من شعراء الدولة الأيوبية ومن كبار رجالاتها...

وها هو الشاعر الدمشقى ابن الساعاتى الذى وفد على مصر واتخذها دار إقامته. نراه قد تأثر بما كان فى مصر والشام من عقائد الفاطميين، ونَهَجَ نَهْج شعراء المدح فى العصر الفاطمى، فنراه يمدح الخليفة العباسى الناصر لدين الله بما كان يمدح به الأئمة فهو يقول مثلا:

فروع إلى العباس تنمى أصولها وما خير فرع أسلمته أصول
هو النسب الزاكى أناف بفضله «وصى» حوى سبق العلا ورسول
ترى اليوم طلقا حين يذكر «جعفر» ويسمى إليه حمزة وعقيل
له شرف البيت العتيق وزمزم وما ساقه حادٍ إليه عجول
وفضل الذبيحين الذى ما لفضله نظير، وهل للنيرين عديل
علاه على السبع الشداد محله ومجد قديم لا يرام أثيل
ففى كل يوم للملائكة العلى طواف على أبياتكم ونزول[4]

فهو يمدح الخليفة العباسى بأنه ينتسب إلى الرسول والوصى على بن أبى طالب وجعفر بن أبى طالب وعقيل بن أبى طالب وحمزة بن عبد المطلب، وهذا مدح شيعى خالص، لا يمدح به إلا الأئمة من نسل على بن أبى طالب، وفى البيت الرابع معنى من المعانى الفاطمية التى تؤول شعائر الحج على أنهم الأئمة وقد شرفهم الله تعالى بذلك[5]، وفى البيت السادس يضمن عقيدة باطنية خالصة بأن جعل الخليفة العباسى

(١) ديوان ابن سناء الملك.

(٢) القاضى النعمان: تأويل دعائم الإسلام ج ٢ ورقة ٦١ «أ» نسخة فوتوغرافية بمكتبة جامعة القاهرة.

(٣) ديوان ابن سناء الملك.

(٤) ديوان ابن الساعاتى ج ١ ص ٥٣ «طبعة دمشق».

(٥) القاضى النعمان: تأويل دعائم الإسلام ج ٢ ورقة ٦١ «فوتوغرافية» وكتاب المجالس المستنصرية ص ٧٥ – ٧٨ «نشر محمد كامل حسين».

فوق السبع الشداد أى فى منزلة المبدع الأول «العقل الأول أو القلم» وقد ذكرنا أن هذا المعنى لا يمدح به إلا إمام إسماعيلى على نحو ما أوردناه فى نظريتنا التى أطلقنا عليها «نظرية المثل والممثول» لأن الإمام فى العالم الجسمانى مثل العقل الأول الروحانى، ولكن ابن الساعاتى أتى بهذا المعنى غلوا منه ومبالغة وتأثرا بما كان فى العصر الفاطمى. وفى البيت الأخير جعل الملائكة يطوفون ببيوت العباسيين، وهو معنى لم ينشد إلاّ فى بلاط الخليفة الفاطمى. فإن الفاطميين أولوا الملائكة وطوافهم ببيت الإمام على الدعاة والحجج الذين يزورون الإمام ويتجهون إليه لأنه قبلة نفوسهم. وهكذا نرى شاعرا آخر من شعراء الأيوبيين يتأثر بالشعراء بالفاطميين.

أما الشاعر ابن النبيه المصرى المتوفى سنة ٦١٩ هـ فقد كان أجرأ شعراء مصر فى الأخذ من عقائد الفاطميين، وكان أشدهم مبالغة فى مدحه للخليفة الناصر العباسى، حتى إن القدماء أنفسهم عابوا عليه هذه المبالغة واتهموه فى دينه.

ولابن النبيه عذره فقد وجد فى عصر كانت عقائد الفاطميين لاتزال ماثلة فى أذهان الناس، وكان شعر شعراء الفاطميين لا يزال يروى بين الناس، فسار ابن النبيه فى تيار هؤلاء الشعراء، وخيل له أنه يمدح إمام الفاطميين لا الإمام العباسى عدو الفاطميين، بالرغم من أن الإمام الناصر العباسى نفسه كان متشيعا.

فانظر إلى ابن النبيه فى إحدى قصائده فى مدح الخليفة الناصر يقول:

بغداد مكّتنا وأحمد «أحمد» ... حجوا إلى تلك المنازل واسجدوا
يا مذنبين، بها ضعوا أوزاركم ... وتطهروا بترابها وتهجدوا
فهناك من جسد النبوة بضعة ... بالوحى جبريل لها يتردد
«باب النجاة» «مدينة العلم» التى ... مازال كوكب هديها يتوقد
ما بين سدرته وسدة دسته ... نبأ يقر له الكفور الملحد
هذا هو السر الذى بهر الورى ... فى ظهر آدم والملائك سجَّد
هذا «الصراط المستقيم» حقيقة ... من زل عنه ففى الجحيم يقيد
هذا الذى يسقى العطاش بكفه ... والحوض ممتنع الحمى لا يورد
«القائم المهدى» أنت بقيت للإسـ ... ـلام تمهد تارةً وتشيد
بعدا «لمنتظر» سواه وقد بدت ... منه البراهين التى لا تجحد
إن كان فوق الطور ناجى ربه ... موسى فبالمعراج أنتم أزيد

أو كان يوسف عبر الرؤيا، فكم ... للغيب منكم مصدر أو مورد
الله أنزل وحيه لمحمد ... وإليكم وصى بذاك محمد
الدهر فى يده فجور مرسل ... سبط وبأس مكفهر أجعد
يا من لمبغضه الجحيم قرارة ... ولمن يواليه النعيم السرمد
لولا التقية كنت أول معشر ... غالوا فقالوا: أنت رب يعبد[1]

هذا ما أنشده ابن النبيه فى الخليفة العباسى، وأوضح كل الوضوح مدى غلو هذا الشاعر فى مدحه، هذا الغلو الذى لا أكاد أجد له مثيلا بين شعراء الفاطميين أنفسهم على ما وصفوا به أئمتهم من صفات، وأسبغوا عليهم من نعوت، ولكن شعراء الفاطميين أتوا بهذه الصفات والنعوت من العقيدة الفاطمية نفسها، ومن التأويلات الباطنية التى تمايز بها الفاطميون ولم يقرهم عليها فرقة من فرق المسلمين، أما ابن النبيه وهو شاعر سنى فى دولة أطاحت بالدولة الشيعية، وحاولت أن تمحو من البلاد العقيدة الشيعية وكان يمدح الخليفة العباسى، ثم يغلو هذا الغلو فى المدح فهذا هو الشىء الذى لم نكن نتوقعه فى شعر المدح فى عصر الأيوبيين، والذين لهم إلمام بالعقائد الفاطمية، يستطيعون فى سهولة ويسر أن يدركوا تأثر هذا الشاعر بالفاطميين، فالشطر الأول من البيت الأول هو نفسه رأى الفاطميين فى عقيدة الأدوار التى تحدثنا عنها من قبل، والحج فى الشطر الثانى من البيت الأول وكل البيت الثانى هو نفسه رأى الفاطميين فى الحج الباطنى، وعجيب أن يذهب الشاعر إلى أن الخليفة العباسى الناصر بضعة من جسد الرسول، لأنه ليس من نسل الرسول، والحديث النبوى يقول «فاطمة بضعة منى» ولكن مبالغة الشاعر وغلوّه فى المدح جعل الخليفة الناصر من أبناء فاطمة مثله فى ذلك مثل أئمة الشيعة.

وكذلك قوله «مدينة العلم» التى جعلها النبى لنفسه دون سواه فقال «أنا مدينة العلم وعلى بابها» وشعراء الشيعة لم يذهبوا إلى أن عليا أو أحد أبنائه «مدينة العلم» ولكن هذا الشاعر السّنى أبى إلا أن يجعل الخليفة الناصر فى مقام النبى نفسه.

أما قوله «باب النجاة» فهو من أقوال شعراء الفاطميين وكذلك قوله بعد ذلك إن الناصر هو «الصراط المستقيم» فهذا تأويل باطنى خالص لا يقول به إلا شاعر إسماعيلى فى مدح إمام إسماعيلى[2] أما فى قوله:

(١) ديوان ابن النبيه ص ٣ «طبع المطبعة العلمية بمصر سنة ١٣١٣ هـ.
(٢) ديوان المؤيد فى الدين ص ٨٧ والمجالس المؤيدية ج١ ص ١٤٧.

هـذا هو السـر الذى بهر الـورى... البيت، فهو نفـس ما قاله الفاطميـون عن مرتبة الاسـتيداع (النبوّة)، ومرتبة الاسـتقرار (الإمامة) وتنقلهما منذ خلق آدم هذا الدور[1]. وهى نفـس النظرية التى اعتنقها الصوفية فى هذا العصـر وهى نظرية «النور المحمدى» ويظهر تأثر ابن النبيه بالمصطلحات والعقائد الفاطمية تأثرا واضحا فى وصفه للخليفة العباسى بأنه «القائـم المهـدى» فقوله هذا أُخذ أخذا عن أقوال الفاطميـين وهو اصطلاح من مصطلحاتهم الخاصـة الـذى تمايزوا به عن الفرق الأخـرى فى وصف «المهدى المنتظـر» الذى هو عند الفاطميين آخر دور آدم الحالى «وخاتم السـبع المثانى» وهو عند الفاطميين الناطق السـابع وآخـر النطقاء، فإذا كان الفاطميون قد انحرفوا عن الدين القويم بأن جعلوا نبيا بعد محمد صلى الله عليه وسلم فإن أسفنا أشد حين نجد شاعرا يتمذهب بمذهب أهل السنة والجماعة يصف خليفة عباسـيا بهذه الصفة الفاطمية، وإذا كان أهل السنة يرون أن النبى صلى الله عليه وسلم قبض ولم يوص لأحد بعده، خلافا لقول الشيعة الذين ذهبوا إلى أن النبى أوصى لعلى يوم «غدير خم» فإن الشـاعر هنا جعل وصية محمد للعباسـيين وهو قول لم نسمع به إلا من شعراء مصر فى عصر الأيوبيين.

ومن الصفات التى خلعها الفاطميون على علىّ بن أبى طالب أنه «قسـيم الجنة والنار» أى أنه يقسم الناس بين الجنة والنار، فمبغضه فى النار ووليه فى الجنة.

وفى ذلك قال المؤيد فى الدين يمدح الإمام المستنصر الفاطمى:

بـمـولانـا الإمـام أبـى تـمـيـم ... هديت إلى الـصـراط الـمستقيم
قـسـيـم الـنـار مـولانـا مـعـد ... وجـنـات العلى وابـن الـقـسيم

فجاء ابن النبيه وجعل هذه الصفة للعباسيين، ويختم ابن النبيه هذه القصيدة بقوله لولا تقـاه لبلغ به غلوه إلى تأليه الخليفة العباسـى، بينمـا لم يذهب إلى تأليه الأئمة الفاطميين سـوى الغلاة الذين طردوا من حظيرة الدعوة الفاطمية ومن هؤلاء دعاة الحاكم، ولم يذهب شاعر من شعراء الفاطميين إلى القول بهذه الدعوة فنرى المؤيد فى الدين مثلا يقول لإمامه:

لست دون الـمسـيـح سماه ربـا ... أهـل شرك ولا نـسـمـيـك ربـا

ومثل ذلك قوله فى قصيدة أخرى:

نـظـم الله فـيـك فـضـل أنـاس ... كـان فـيـهـم مـقـسـمـا مـنـثـورا

(١) ديوان المؤيد ص ٨٠ وما بعدها.

أهل بيت قد أذهب الله عنهم ... كل رجس وطهروا تطهيرا
أنت يا ابن النبى خابت صلاة ... لم تكن فى خلالها مذكورا
قرن الله اسمه باسمك العا ... لى، فأربى جلالة وظهورا
فهو عقد على صدور التحيا ... ت وتاج حلى به التكبيرا
يا معينى إذا دجت ظلمة القـ ... ـبر وخاطبت منكرا ونكيرا
يا مجيرى إن خفت يوما عبوسا ... مكفهرا مستصعبا قمطريرا
يا مغيثى والنار توقد بالنا ... س وترمى شرارها المستطيرا
يا دليلى على الصراط إذا ما ... أدهش الخوف ناظرى تحييرا
بولائى أمنت من سيئاتى ... يوم ألقى كتابى المنشورا
فيك سر لولاه ما قسم الله ... على الناس جنة وسعيرا
قد هدانا بك السبيل فإما ... مؤمنا شاكرا وإما كفورا[1]

وفى قصيدة أخرى لابن النبيه فى مدح الخليفة العباسى الناصر لدين الله أيضا يقول:

خذ من زمانك ما أعطاك مغتنما ... وأنت ناه لهذا الدهر آمره
فالعمر كالكأس تستحلى أوائله ... لكنه ربما مجت أواخره
وأجسر على فرص اللذات محتقرا ... عظيم ذنبك إن الله غافره
فليس يخذل فى يوم الحساب فتى ... و«الناصر» بن رسول الله ناصره
تجسد الحق فى أثناء بردته ... وتوجت باسمه العالى منابره
له على ستر سر الغيب مطلع ... فما موارده إلا مصادره
يقضى بتفضيله سادات عترته ... لو كان «صادقه» حيا «وباقره»
كل الصلاة خداج لا تمام لها ... إذا تقضّت ولم يذكره ذاكره
كل الكلام قصير عن مناقبه ... إلا إذا نظم القرآن شاعره
رأيت ملكا كبيرا فوق سدته ... جبريل داعيه أو ميكال زائره[2]

فابن النبيه فى هذه الأبيات يرى أن الخليفة الناصر من نسل رسول الله. وهو نفس الرأى الذى قاله من قبل فى قصيدته السابقة:

---

(١) ديوان ابن النبيه ص ٦.

(٢) نفسه ص ٧.

فهناك من جسد النبوة بضعة بالوحي جبريل لها يتردد

فإذا كانت هذه هى نظرة ابن النبيه إلى الخليفة العباسى فلا غرو أن نراه يصف هذا الخليفة بالصفات التى قالها الشيعة عن أئمتهم فهو إذن الشفيع يوم القيامة ويكرر هذا المعنى فى قصيدة أخرى فيقول:

بولائى أمنت من سيئاتى يوم ألقى كتابى المنشورا

بل يذهب فى الغلو إلى مدى أبعد مما ذهب إليه شعراء العصر الفاطمى إذ نسب إلى الخليفة العباسى معرفة الغيب[1]، وكرر هذا المعنى فذكره فى هذه القصيدة وفى القصيدة السابقة، فبينما طعن علماء السنة على أئمة الفاطميين بأنهم يدعون معرفة الغيب وتبرأ الفاطميون من هذه المقالة وممن قال بها، ترى ابن النبيه يلصقها بالخليفة العباسى، ويذهب ابن النبيه إلى أن أئمة الشيعة، وخاصة جعفر الصادق ومحمد الباقر بن على زين العابدين، لو كانوا أحياء لقدموا الناصر العباسى عليهم، ونلاحظ أنه خص جعفر الصادق والباقر دون غيرهما أولا للضرورة الشعرية فى القافية الرائية، وثانيا لأن جل علوم الشيعة إنما رويت عن طريقهما. ثم يعود ابن النبيه إلى عقيدة الفاطميين التى تذهب إلى أن الصلاة لا تقبل مالم يصلّ على الأئمة. فالشاعر هنا أخذ هذه العقيدة ونظمها مستعملا ألفاظ الفقهاء فزعم أن الصلاة خداج إن لم يكن بها الصلاة على الناصر، فإذا كان الشيعة يقولون ذلك بناء على عقائدهم فنحن لا ندرى على أى أساس قال ابن النبيه ذلك إلا إذا اعتبر الخليفة العباسى من أئمة الشيعة، وكرر ابن النبيه هذا المعنى فى قصائد أخرى فمن ذلك قوله:

أنت يا ابن النبى خابت صلاة لم تكن فى خلالها مذكورا

ونحن نعلم أن الشيعة ذهبوا إلى أن فى القرآن الكريم عددا من الآيات أنزلت فى أهل البيت[2] وعدوا ذلك من فضائل أئمتهم ومن مناقبهم فهاهو ابن النبيه يمدح الناصر بهذا المعنى الشيعى، وختم الشاعر هذه القصيدة بأن الناصر ملك كبير وأن جبريل داعيته وأن ميكائيل زائره، وهذه من المعانى الباطنية الاسماعيلية التى لم يقل بها سوى الإسماعيلية وذلك أن تأويل الملائكة على الدعاة والحجج، وفى ذلك يقول المؤيد فى الدين داعى الفاطميين:

---

(١) النعمان بن محمد: المجالس والمسايرات ورقة ٨٩ (نسخة خطية بمكتبتى).

(٢) فى أدب مصر الفاطمية ص ٦ والمجالس المؤيدية ج ١ ص ٣٥٩ وبحار الأنوار ج ٧ ص ٢ والمجالس المستنصرية فى مواضع متفرقة. ديوان المؤيد فى الدين ج ٧٤ وما بعدها.

أنـا آدمـى فى الـرواء حـقـيـقـتـى ملك تـبـيّـن ذاك الـمـسـتـرشـد

فأخـذ ابن النبيـه هذه العقيدة الباطنية ونظمها فى شـعره وجعلها فى الخليفة الناصر العباسـى. من هذه الأمثلة التى أوردناها من شـعر ابن النبيه، ومن أشـعاره الأخرى التى يجمعها ديوانه نسـتطيع أن نلمس مدى تأثر هذا الشاعر بالتعاليم الشيعية عامة والفاطمية منها على وجه الخصوص.

ولم يكن ابن النبيه هو الشـاعر الوحيد الذى نرى فى شـعره أثر هذه التعاليم، فها هو زميله ابن مطروح المتوفى سـنة ٦٤٩ هـ يتأثر بما تأثر به ابن سـناء الملك وابن السـاعاتى وابن النبيه وغيرهم من شـعراء ذلك العصر من تعاليم شـيعية ومن تراث الفاطميين، ففى مديحه للخليفة المستنصر بالله العباسى خلع عليه صفات الإمام الفاطمى فهو يقول:

الله أكـبـر أى طـرف يـطـمـح أم أى ذى لـسـان يـقـول فـيـفـصح
حـرم الـخـلافـة والإمـام إمـامـنـا فـمـن الـعـجـائـب أن لـفـظـا يـجـنـح
عـظـم الـمـقـام عـن الـمـقال فحسبنا أنّـا نـقـدس عـنـده ونـسـبـح
شـرفـا بـنـى الـعـبـاس مـا أبـقـيـتـم فـخـرا لـمـفـتـخـر بـه يـسـتـنـجح
مـن مـعـشـر جـبـريـل مـن خـدامـهـم وبـمـثـل ذا يـتـمـدح الـمـتـمـدح
لـمـا سـمـوا سـمـحـوا فـحـدث صـادقـا عـن أنـفـس تـسـمـو وأيـد تـسـمح
فـوق الـسـمـاء خـيـامـهـم مـضـروبـة فـلـخـيـلـهـم مـسـرى هـنـاك ومـسـرح
حـيـث الـنـجـوم تـعـد مـن حـصـبـائـهـا والـبـرق مـنـهـا بـالـسـنـابـك يـقـدح
أخـلـيـفـة الله الـرضـى هـل لـى إلـى بـحـبـوحـة الـفـردوس بـاب يـفـتـح
حـتـى أطـوف بـذلـك الـحـرم الـذى مـا فـاز إلا مـن بـه يـتـمـسـح
وأجـيـل فى مـلـكـوت قـدسـك نـاظـرا مـازال يـعـبـق بـالـنـسـيـم ويـصـبح
وأقـبـل الأرض الـمـقـدسـة الـتـى أرج الـسـعـادة مـن ثـراهـا يـنـفـح
هـذا الـذى نـزل الـكـتـاب بـمـدحـه فـبـأى شـئ بـعـد ذلـك يـمـدح
هـذا نـذيـر الـنـفـخـة الأخرى الذى مـن لا يـديـن بـحـبـه لا يـفـلـح
إن الـخـلافـة لـم تـكـن إلا لـكـم مـن آدم وهـلـم جـرا تـصـلـح[1]

وابن مطروح فى هذه الأبيات التى يمدح فيها الخليفة العباسى لا يجارى شعراء العباسيين فى مدائحهم، إنما هو يجارى شـعراء الشـيعة فى مدح أئمتهم وينهج نهج شـعراء الفاطميين

(١) ديوان ابن مطروح (طبع الجوائب ١٢٩٨ هـ).

خاصة الذين أسبغوا على الأئمة لونا من التقديس ورفعوا مرتبة الأئمة فوق السموات العلى، وجعلوا بيد الأئمة دخول الجنة أو النار، وذهبوا إلى أن بالقرآن الكريم آيات وردت فى الأئمة دون غيرهم، وأن من لا يدين بحب الإمام ويتولاه فهو بعيد عن زمرة المؤمنين وأن الإمام هو نذير النفخة الكبرى، وأن الإمامة تنقلت من آدم إلى أن استقرت فى إمام العصر، فهذه كلها من المعانى الشيعية التى لم يمدح بها إلا أئمة الشيعة ولم نسمع أن شاعرا من شعراء الأمويين أو العباسيين مدح خلفاء الأمويين والعباسيين بمثل هذه المعانى إلا فى هذا العصر المتأثر بالتقاليد الشيعية الفاطمية، فإذا اغتفرنا لابن مطروح أن يصف الخليفة العباسى بمثل هذه المعانى الشيعية لأن المستنصر بالله كان إمام المسلمين وخليفة رب العالمين ويمت إلى النبى صلى الله عليه وسلم بصلة القرابة القريبة فغلا الشاعر فى مدحه غلو الشيعة فى مدح أئمتهم، فما عذر ابن مطروح فى مدائحه للملك الكامل ناصر الدين محمد بن العادل الأيوبى الذى لا يمتُّ إلى الخلافة بصلة ولا ينتسب إلى النبى صلوات الله عليه بسبب؟ .. ففى قول ابن مطروح فى الملك الكامل:

«قدست» من ملك عظيم الشأن ... متتابع الحسنات والإحسان
تتزاحم التيجان فى أبوابه ... عند السلام ولابسو التيجان
حتى إذا بصرت به أبصارهم ... خروا لهيبته إلى الأذقان
أفد المواكب كالكواكب والتحق ... «بشريف ذاك العالم الروحانى»
ألقى مقاليد المماليك عنوة ... لك حسن تدبير وثبت جنان
وتشوف الأملاك لاسمك كلما ... ذكروا سميك عند كل أذان
أما وقد علقت يدى «بمحمد» ... وظفرت منه «ببيعة الرضوان»
أنا فيك «حسان» وأنت «محمد» ... «بمحمد» عطفا على «حسان»[1]

فما معنى تقديس هذا الملك؟ وما الذى صبغ عليه هذه القدسية وما الذى جعل للملك الكامل الأيوبى شرف الانتساب إلى العالم الروحانى؟ وما هذه البيعة التى وصفها بأنها «بيعة الرضوان» هذه كلها مسائل نرجعها جميعا إلى مبالغة الشاعر فى مدحه، وهى المبالغة التى ورثها شعراء عصره عن شعراء الفاطميين، وإذا كان ابن مطروح هنا قد أساء فى مبالغته لأنه مدح الملك الأيوبى بصفات دينية ليس بينه وبينها سبب لكنه سار على سنة شعراء الفاطميين، وجرى فى تيارهم متأثرًا بهم ومثل هذا قوله فى مدح الملك الأشرف مظفر الدين أبى الفتح موسى:

(١) ديوان ابن مطروح ص ١٧٥ - ١٧٦ ج١.

الأشرف الملك الكريم المجتبى موسى وتمم بالرحيم المحسن
يا أيها الملك الذى من فاته نظر إليك فما أراه بمؤمن
والسبعة الأفلاك ما حركاتها إلا مخافة أن تقول لها اسكنى[1]

فالشاعر هنا جعل إلى الملك الأشرف لونا من ألوان العبادة! وأن الأفلاك تسير بأمره! ! وهى صفات خلعها عليه الشاعر مبالغة وغلوا، بينما هى صفات شيعية من صميم عقائد الشيعة فى الإمامة، فإذا قيلت هذه الصفات فى الملك الأشرف أو فى غيره من ملوك الأيوبيين أو سلاطين المماليك فهى السخف بعينه لأنها لا تقوم على أساس مذهبى أو عقيدة دينية، ولكنها المبالغة والتقليد لما كان يجرى فى العصر الفاطمى فى مصر. فبالرغم من أن الأيوبيين فى مصر عملوا على محو التشيع ونجحوا سياسيا فى تقويض أركان دولة الفواطم، فإنهم لم يستطيعوا أن ينتزعوا من عقول المصريين هذه الآراء الشيعية أو أن يمحوها محوًا تاما، فقد رأينا من تلك الأمثلة التى أوردناها من الشعر كيف كان تأثير عقيدة الشيعة عظيما فى هؤلاء حتى خيل إلينا أننا أمام شعراء من الشيعة يمدحون أئمة الشيعة.

على أننا نستطيع أن نقول إنه بالرغم من ذلك كله فإن التشيع ضعف فى مصر شيئا فشيئا، حتى كاد يمحى منها وأصبحت مصر فى القرن العاشر الهجرى وما بعده تدين بمذهب أهل السنة والجماعة. ولم يكن ذلك عن طريق السيف والإرهاب فحسب، بل كان هنالك سبب أقوى من الإرهاب والسيف وهو نشر العلم فى مصر.

انتشر المذهب الفاطمى بمصر على يد عدد من الدعاة واهتم الفاطميون بالدعاة اهتماما عظيما فوضعوا للدعاية أسسا وللدعاية شروطا[2] فانبث الدعاة بين الناس يكالبون أصحاب الفرق الأخرى ويحاجونهم ويبطلون آراءهم وأوهموا الناس أن الحق فيما يقوله الدعاة عن الأئمة، ومازالوا بالناس حتى أقبل على دعوتهم عدد كبير، اعتنقوا المذهب رغبة أو رهبة، فشغلت عقائد الفاطميين أذهان الناس طوال العصر الفاطمى، وجاء عصر الدولة الأيوبية، فأراد القائمون عليها أن يغيروا عقائد الشيعة فى مصر، ورأوا أن الفاطميين نشروا مذهبهم عن طريق العلم، فحاربوا التشيع بنفس السلاح الذى استخدمه الفاطميون، وهو الدعوة إلى أهل السنة والجماعة عن طريق فتح المدارس السنية أولا وتشجيع حركة التصوف ثانيا.

---

(١) ديوان ابن مطروح: ص ١٧٧.

(٢) أدب مصر الفاطمية: ص ١٩.